الفصل الثالث
لمحات من الكتاب والسنة حول الآباء والأبناء

أولاً : وصايا وحكم من الآباء للأبناء :

١ ـ وصايا لقمان الحكيم لابنه :

تحدث القرآن الكريم عن لقمان الحكيم كما تحدثت عنه كتب التاريخ ، وذكرت أنه حكيم العرب وفيلسوفهم . وأصله وزمن وجوده محل خلاف ، وأصح ما قيل فى ذلك أنه أدرك داود عليه السلام ، وأخذ عنه العلم ، وعاش طويلاً ، وهو ابن أخت أيوب عليه السلام ، وقيل ابن خالته . وفى تفسير الألوسى أنه كان رجلا صالحًا حكيمًا ، ولم يكن نبيًّا . وأيًّا كان لقمان فقد قرر القرآن الكريم أنه رجل آتاه الله الحكمة ، التى مضمونها ومقتضاها الشكر لله ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ وشكر الله إنما هو رصيد مُدّخَرٌ للشاكر ينفعه هو ، والله غنى عنه ، فالله محمودٌ بذاته ولو لم يحمده أحد من خلقه . ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (١).

وقد حدثنا عنه القرآن الكريم حكيمًا ومرشدًا ، وواعظًا لابنه فى سورة سُمِّيَتْ باسمه ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢). ما يريد الوالد لولده إلا الخير ، وما يكون الوالد لولده إلا ناصحًا ، وهذا لقمان الحكيم ينهى ابنه عن الشرك ، ويعلل هذا النهى بأن الشرك ظلم عظيم .

---

(١) سورة لقمان ـ من الآية ١٢ .

(٢) سورة لقمان ـ من الآية ١٣ .

ويؤكد هذه الحقيقة مرتين ، مرة بتقديم النهى وفصّل علته : ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ . ومرة بإنَّ واللام : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ والنصيحة من الوالد لولده مُبَرَّأة من كل شبهة ، بعيدة عن كل مظنة . إنها الحقيقة التى تجرى على لسان كل من آتاه الله الحكمة من الناس ، يُراد بها الخير المحض ولا يُراد بها سواه .

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (١).

ما يبلغ تعبيرٌ مُجَرَّدٌ من دقةِ عِلْمِ الله وشُموله ، وعن قُدرة الله سبحانه ، وعن دقة الحساب وعدالة الميزان ما يبلغه هذا التعبير المصور المعجز ، الجميل الأداء ، العميق الإيقاع : إن تك حبة من خردل صغيرة ضائعة لا وزن لها ولا قيمة ، فتكن « فى صخرة» صلبة محشورة فيها لا تظهر ولا يتوصل إليها « أو فى السماوات » ، فى ذلك الكيان الهائل الشاسع الذى يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة ، أو ذرة تائهة . «أو فى الأرض » ، ضائعة فى ثراها وحصاها لا تبين ـ « يأت بها الله » ، فَعِلْمُهُ يلاحقها ، وقُدرته لا تُفلتها . إنها صورة رائعة يعرضها القرآن الكريم حتى يخشع القلب وينيب إلى الله اللطيف الخبير بخفايا الغيوب .

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٢).

ويمضى السياق فى حكاية لقمان مع ابنه وهو يعظه ، فيتابع معه خطوات العقيدة بعد استقرارها فى الضمير بعد الإيمان بالله الذى لا شريك له ، واليقين بالآخرة التى لا ريب فيها ، والثقة بعدالة الجزاء . لا يفلت منه مثقال حبة من خردل . فأما الخطوة التالية فهى التوجه إلى الله بالصلاة ، والتوجه إلى الناس بالدعوة إلى الله ، والصبر على

---

(١) سورة لقمان ـ الآية ١٦ .

(٢) سورة لقمان ـ الآية ١٧ .

تكاليف الدعوة ومتاعبها ، وهذا هو طريق العقيدة المرسوم : توحيد الله ، وشعور بمراقبته ، وتطلع إلى ما عنده ، وثقة فى عدله ، وخشية من عقابه .

ثم انتقالٌ إلى دعوة الناس وإصلاح حالهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، والتزود قبل ذلك كله للمعركة مع الشر بالزاد الأصيل ، زاد العبادة لله ، والتوجه إليه بالصلاة ، ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى الله من التواء النفوس وعنادها ، وانحراف القلوب وإعراضها ، ومن الأذى تمتد به الألسنة ، وتمتد به الأيدى ، ومن الابتلاء فى المال ، والابتلاء فى النفس عند الاقتضاء . فالمقاوِم للمُنكَر لابد أن يرى عنتًا ومشقة وإرهاقًا فى مقاومته إياه ، ولكن من نتائج الإيمان ومن مظاهره ملاقاة العنت والمشقة بارتياد الطريق السليم ، وصَبْرُ المؤمن ـ وهو جزء من إيمانه ـ هو الذى يُنجيه ويُيسر له الأمر فى النهاية . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ . وعزم الأمور : قطع الطريق على التردد فيها بعد العزم والتصميم .

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (١)

ويستطرد لقمان فى وصيته التى يحكيها لنا القرآن الكريم هنا والتى تهم كل داعية إلى الله ، فالدعوة إلى الخير لا تجيز التعالى على الناس والتطاول عليهم باسم قيادتهم إلى الخير . فينفِّر القرآن الكريم من الكِبْر وإمالة الخَدِّ للناس فى تعالٍ واستكبار ، كما يُنفر وينهى من مشية المَرَح فى تَخايُل ونَفْخَة وقِلَّة مبالاة بالناس ، فهى حركة كريهة يمقتها الله ويمقتها الخلق . ويأمر بالمشية المعتدلة القاصدة ، مع عدم الإسراف ، وعدم إضاعة الطاقة فى التبختر والتثنى والاختيال ، المشية القاصدة إلى هدف ، والتى تمضى لقصدها فى بساطة وانطلاق . هذا بالنسبة لمشية الابن ، أما مشية البنت فأجمل ما جاء فيها هو وصف القرآن الكريم لابنة شُعيب فى قوله تعالى : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ (٢). تلك هى مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة « على استحياء » فى غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء .

---

(١) سورة لقمان ـ الآيتان ١٨ ، ١٩ .

(٢) سورة القصص ـ من الآية ٢٥ .

﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ :

فالغض من الصوت فيه أدب ، وثقة بالنفس ، واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته، وما يغلظ فى الصوت إلا سيىء الأدب ، أو شاكٌّ فى قيمة قوله وشخصه ، مُحاوِلا إخفاء هذا الشك بالحِدَّة والغلظة . والأسلوب القرآنى يُرَذِّلُ هذا الفعل ويُقبحه فى صورة مُنَفِّرة محتقرة بشعة حين يعقب عليه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ . ويفسر الزمخشرى فى كتابه الكشاف هذه الجملة بقوله : « فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه وإخراجه مخرج الاستعارة ، وإنْ جُعِلُوا حميرًا وأصواتهم نهاقًا . . . مبالغة شديدة فى العزم والتهجين ، وإفراط فى التنبيه عن رفع الصوت والترغيب عنه ، وتنبيه على أنه من كراهة الله بمكان » .

ويقول د . محمد البهى فى كتابه « رأى الدين بين السائل والمجيب » : حتى قراءة القرآن لا تكون مبررًا لرفع الصوت وإزعاج الآخرين بالصوت المرتفع ؛ لأن طلب خفض الصوت فى الحديث أو فى الكلام أمرٌ مُطْلَق وعام ، ولأن الإزعاج بالصوت ليس من آداب القرآن ، وإنْ كان القرآن نفسه هو المتلو بالصوت المرتفع .

ومن وصايا لقمان الحكيم لابنه أيضًا :

يا بُنى خذ عنى هذه الخصال الثمانى :

الأولى : إذا كنت بين الصلاة فاحفظْ قلبَك .

والثانية : إذا كنت بين الناس فاحفظ لسانَك .

والثالثة : إذا كنت بين النعمة فاحفظ خُلُقَك .

والرابعة : إذا كنت فى دار الغير فاحفظ عينيك .

وأما الخصال الأربع الأخيرة . فكُنْ ذَاكِرًا أبدًا لشيئين : الخالق ، والموت .

وكن ناسيًا أبدًا لشيئين : إحسانك فى حق الغير ، وإساءة الغير فى حقك .

ـ ومنها :

« إياك أنْ تُرِىَ الناسَ أنك تَخْشَى الله وقلبُكَ فَاجِر » .

٢ـ وصية الرسول ﷺ لابن عباس :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنتُ خَلْفَ النبىِّ ﷺ فقال : « يا غُلام ، إنى أعلمك كلمات : اِحْفَظِ الله يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ الله تجده تِجَاهَكَ ، إذا سَأَلْتَ فاسأل الله ، وإذا استعنتَ فَاسْتَعِنْ بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لَك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلاَّ بشىء قد كتبه الله عليك ، رُفِعَتِ الأقلامُ ، وجفَّتِ الصُّحُف »(١).

وفى رواية عن الترمذى : « احفظ الله تجده أمامك . تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك . واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا » .

٣ـ وصية نوح لابنه :

رُوى عن الرسول ﷺ حديث صحيح معناه : أن نبىَّ الله نوحًا لما حضرته الوفاة قال لابنه : « إنى قاص عليك وصية : آمُرُكَ باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين : آمرك بلا إله إلاَّ الله ، فلو أن السموات السبع والأرضين السبع وضعت فى كفة ، ووضعت لا إله الا الله فى كفة ، رجحت بهن لا إله إلا الله . وآمُرُكَ بسبحان الله وبحمده ، فإن بها صلات كل شىء ، وبها يُرزق الخلق ، وأنهاك عن الشرك والكبر . قِيلَ : يا رسول الله ، هذا الشرك قد عرفناه ، فما الكِبر ؟ قال الرسول : « الكِبْرُ بطر الحق وغمط الناس » . أى : التكذيب بالحق ، والتعالى على الناس واحتقارهم .

وقالوا عن الكبر : إنه أثر من آثار العجب والبغى من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم ، وترحلت منه العبودية ، ونزل عليه المقت ، فنظره إلى الناس شَذَر ، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار .

٤ـ وصية على بن أبى طالب لابنه الحسن :

وَصَّى علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه ابنه الحَسَن وصية طويلة ، جاء فيها :

---

(١) رواه الترمذى ـ رياض الصالحين .

« واعلم يقينًا أنك لن تبلغ أملك ، ولن تعدو أجلك ، فخفض فى الطلب ، وأجمل فى المكتسب ، فليس كل طالب بمرزوق ، ولا كل مجمل بمحروم ، وأكرم نفسك عن كل دَنِيَّة وإن ساقتك إلى الرغائب ، فإنك لن تعتاض لما تبذل من نفسك عوضًا ، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرًّا ، واعلم أن اليسير من الله سبحانه وتعالى أعظم وأكرم من الكثير مِنْ خَلْقِه ، وان كان كُلٌّ من عند الله عز وجل »[1].

وقال أيضًا :

« يا بنى احذر من الأمور ثلاثًا ، ووافِقْ ثلاثًا ، واستح من ثلاثٍ ، وافزع إلى ثلاث ، واهرب من ثلاث ، واجتنب ثلاثًا وارْجُ ثلاثًا .

احذر من الكبر ، والغضب ، والحرص المذموم . ووافق كتاب الله ، وسنة رسوله ، والصالحين من عباده . واستح من الله ، ومن الملائكة ، ومن الصالحين . وليكن فزعك خوفًا من المعصية ، وفزعك إلى التوبة ، وفزعك إلى طلب العلم . واهرب من الكذب ، والخيانة ، والظلم . واجتنب : الشر وأهله ، والنفاق وأهله ، والحمق وأهله . وَارْجُ : الله فى غفران ذنوبك ، وفى قبول أعمالك ، وفى شفاعة نبيك ﷺ .

٥ ـ نصيحة أم لولدها :

وقيل : إن محمد بن عبد الرحمٰن بن هشام القاضى المكى كان قصيرًا دَمِيمًا ، وكان عنقه داخلاً فى بدنه ، فسمعته امرأته ذات يوم وهو يقول : « اللهم أعتقْ رَقَبَتِى من النار» ، فقالت له زوجته ، وأى رقبة لك حتى يعتقها الله من النار ؟ فقال لها : إن أمى قالت لى يومًا : « يا ولدى إنك قد خُلِقْتَ خلقة لا تصلح معها لمعاشرة الفتيان ، فعليك بالدين والعلم ، فإنهما يتمان النقائص ، ويرفعان الخسائس » ، فنفعنى الله بما قالت ، فاجتهدت فى طلب العلم حتى وُلِّيتُ القضاء .

٦ ـ وصية عقبة بن أبى سفيان لمؤدب ولده :

وقد رَوَى الجاحظ من كلام عقبة بن أبى سفيان لمؤدب ولده ما يلى : « لِيَكُنْ أول ما

---

(٢) نهج البلاغة .

تبدأ به من إصلاح أن تبدأ بإصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحَسَنُ عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت »[1].

٧ ـ نصيحة محمد بن سوار لابن أخته :

ومن الحكم البليغة التى تروض الولد على مراقبة الله ، ما أَوْصَى به محمد بن سوار لابن أخته سهل بن عبد الله التُّسترى : « تَذَكَّرِ اللهَ الذى خلقك ، وقُلْ بِقَلْبِكَ دائمًا : الله ناظِرٌ إلَيَّ . الله شاهِدٌ علَيَّ . الله معى . ومَنْ كان الله معه وناظرًا إليه وشاهدًا عليه أيعصيه ؟ إياك والمعصية ، والزم الطاعة » . وبذلك غَرَسَ فى نفسه وهو صغير أكرم معانى الإيمان ، ومراقبة الله عز وجل .

ثانيًا : صلاح الآباء ينفع الأبناء :

إن صلاح الآباء ينفع الأبناء فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ففى الحياة الدنيا يقول العلامة الإسلامى أبو الحسن الندوى ، رئيس المجمع الإسلامى العلمى بالهند : « إنه مِنْ ضِمن التصرفات الغريبة التى حدثت بين موسى عليه السلام وبين الخَضِر أن يقيم جدارًا أوشك أن ينقض من غير أُجرة يتقاضاها ، وذلك فى قرية لم يضيِّفْهُمَا أهلُها ، ولم يعرفوا حقهما . لقد أصلح الخضر الجدار وأقامه ؛ لأنه كان ليتيمين مِن أبَوَيْنِ صالِحَيْنِ ، وكان تحته كَنْزٌ لهما ، لو تهدَّم وانقضَّ هذا الجدار لانكشف هذا الكنز الدفين ،اختطفه السُّرَّاقُ والناهبُون ، وبقى الغلامان من غير مال ولا رصيد . وهكذا ظهر أن صلاح العمل ينفع فى الحياة وبعد الممات ، وأن الله لم يرد أن يضيع أولاد الرجل الصالح ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

مما يتقدم يتبين أن البذور الصالحة تظهر نتيجتها ، كما أن البذور الفاسدة تظهر نتيجتها ، والله تعالى يقول :

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ

---

(١) البيان والتبيين ـ ج ٢ .

(٢) سورة يوسف ـ من الآية ٩٠ .

أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾(١).

ويقول المرحوم سيد قطب فى كتابه فى ظلال القرآن : فهذا الجدار الذى أتعب الخضر نفسه فى إقامته ولم يطلب عليه أجرًا من أهل القرية وهما جائعان ، وأهل القرية لا يضيفونهما . كان يخبىء تحته كنزًا لغلامين يتيمين ضعيفين فى المدينة ، ولو تُرك الجدار ينقض لظهر من تحته الكنز ، فلم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه .

ولما كان أبوهما صالحًا فقد نفعهما الله بصلاحه فى طفولتِهما وضَعْفِهما فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته .

أما فى لآخرة :

فيصور القرآن الكريم مشاهد النعيم للمتقين فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾(٢).

تتحدث هذه الآيات عن المؤمنين الأتقياء الذين يدخلهم الله جنته ، حيثُ ينعمون برزق الله الوفير ، وخيره الكثير ، ووقايته لهم من النار .

ثم يصور القرآن الكريم مشهدًا آخرَ من مشاهد هذا التكريم ، فإذا ذريتهم المؤمنة تجتمع إليهم فى هذا النعيم زيادة فى الرعاية والعناية ، ولو كانت أعمال الذرية أقل من مستوى مقام المتقين ، وإن لم يبلغ الأبناء درجة الآباء فى الإيمان مادامت هذه الذرية مؤمنة ، وذلك دون أن ينقص شىء من أعمال الآباء ودرجاتهم وثواب أعمالهم ، ودون أن

---

(١) سورة الكهف ـ الآية ٨٢ .

(٢) سورة الطور ـ الآيات من ١٧ ـ ٢٠ .

يحمل الآباء شيئًا من أخطاء ذرياتهم ، ودون إخلال بفردية التبعة ، وحساب كُلٍّ بعمله الذى كسبه . . . إنما هو فضل الله على الجميع .

فيقول تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (١).

والسر فى ذلك أنهم عاشوا على حَذَرٍ من يوم الحساب ، عاشوا فى خشية من لقاء ربهم ، عاشوا مشفقين من حسابه ، عاشوا لذلك وهم فى أهلهم وذريتهم حيث الأمان الخادع ، ولكنهم لم ينخدعوا ، وحيث المشغلة المُلْهِيَة ، ولكنهم لم ينشغلوا ، عندئذ مَنَّ الله عليهم ووقاهم عذاب السموم ، وقاهم الله تعالى هذا العذاب مِنَّة منه وفضلا ، لما علم من تقواهم وخشيتهم وإشفاقهم .

فالعمل لا يُدخل صاحبه الجنة إلا بِمِنَّةٍ من الله وفضل ، فما يبلغ العمل أكثر من أن يشهد لصاحبه أنه بذل جهده ، ورغب فيما عند الله ، وهذا هو المؤهل لفضل الله تعالى .

كما يصور القرآن الكريم خوالج نفس الأبوة المطمئنة المستقيمة ، وهى تتوجه إلى الله داعية : ﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ﴾ (٢).

دعوة القلب المؤمن أن يتصل عمل الأب الصالح فى ذريته ، وأن يؤنس قلبه شعوره بأنّ فى عَقِبِه مَنْ يعبد الله ويطلب رضاه .

والذرية الصالحة أَمَلُ الأب الصالح وهى آثَرُ عنده من الكنوز والذخائر ، وأروح لقلبه من كل زينة الحياة . دعاء يمتد من الوالدين إلى الذرية ليصل الأجيال المتعاقبة فى طاعة الله تعالى ورضاه .

---

(١) سورة الطور ـ الآية ٢١ .

(٢) سورة الأحقاف ـ من الآية ١٥ .

وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (١).

وذلك أن كل إنسان مرهونٌ بعمله ، وأن كل امرىء بما كسب من عملٍ رهين ، فمعنى كل من الآيتين متفق وغير متعارض ، فلا توجد آية فى القرآن تتعارض مع آية أخرى ، ولا يصطدم معنى مع معنى آخر فى القرآن الكريم ، فآية سورة الطور قد حددت أن الآباء والأبناء متفقون فى العقيدة الإيمانية ، وأن عمل الآباء بمقتضى الإيمان قد يزيد على عمل الأبناء ، ويريد الله سبحانه وتعالى ـ رحمة بالآباء ـ أن يُلحق الأبناء المؤمنين بآبائهم المؤمنين ، وقد استبعد الله عز وجل الأبناء غير المؤمنين ، والله سبحانه يجزى كل مؤمن على قدر إيمانه وقدر عمله بمقتضى ذلك الإيمان . والزيادة التى يعطيها الحق تبارك وتعالى هى من فضل الله على المؤمنين من الآباء ، ورحمة من الحق سبحانه وتفضل منه جَلَّ وعَلاَ على الأبناء المؤمنين ، وذلك الفضل هو تكريم للآباء الذين اختاروا الإيمان والعمل به ، وهو امتنان من الحق على الأبناء المؤمنين ؛ ليزيد الله عطاءه لعباده المؤمنين من الآباء ، وفى ذلك حثٌّ للآباء المؤمنين على مزيد من العمل بمقتضى الإيمان ، وحث للأبناء على اتِّباع آبائهم على هذا العمل الإيمانى ، فإن قَلَّ عملُ الابن المؤمن عن عمل الأب المؤمن ، زادَ فضلُ الحقّ للآباء المؤمنين بأن يُنْزِل أبناءهم المؤمنين معهم فى الجنة ، ولا يتعارض ذلك مع قوله تعالى :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (٢).

إن إلحاق الأبناء المؤمنين بمنزلة الآباء المؤمنين تكريم للآباء وفضل منه ، وفى ذلك يقول تعالى عن فضله الكريم :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٣).

من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم :

وعن استغفار الملائكة حَمَلَةِ العرش للذين آمنوا يقول تعالى :

---

(١) سورة فاطر ـ من الآية ١٨ .

(٢) سورة النجم ـ الآية ٣٩ .

(٣) سورة يونس ـ الآية ٥٨ وانظر : تأملات فى سورة الكهف لأبى الحسن الندوى ، وفى ظلال القرآن لسيد قطب .

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١)

ومع قيام حَمَلة العرش بمهمتهم فإنهم لا يفترون عن التسبيح ، فهم يُسبحون بحمد ربهم على نعمه الجزيلة التى منحهم إياها ، وأسمى هذه النعم هذه الطبيعة المعصومة التى لا تغضب الله أبدًا ، إنهم باستمرار فى مرضاة من الله سبحانه ، ويؤمنون به ، أى : يترقى إيمانهم فى كل لحظة تمر بسبب تسبيحهم بحمد الله المستمر ، فالذكر قد جعله سببًا فى زيادة الإيمان ورُقيه .

وهم يستغفرون للذين آمنوا ، ويعللون طلبهم للمغفرة أن الله سبحانه وتعالى قد وسعت رحمته كل شىء ، ووسع علمه كل شىء ، ويلجئون إلى الله بالدعاء والضراعة ويَخُصُّون بدعائهم الذين تابوا من بين المؤمنين : ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾ وصَدَقُوا فى توبتهم ، وإذا صدقت التوبة استتبعت العمل : ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ ﴾ . . ولم يطلبوا المغفرة فحسب ، وإنما سألوا أن يقيهم الله سبحانه وتعالى عذابَ الجحيم ، وأن يدخلهم جنات عدن التى وعدهم . وأن يدخل معهم من « صَلَحَ » من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . فالملائكة حَمَلَةُ العرش لم يسألوا الله سبحانه أن يدخل الجنة الآباء والأزواج والذرية على أى وضع كان ، وإنما خَصَّصُوا مَن صَلَحَ منهم ، ثم سألوا الله فى النهاية أن يقى هؤلاء الذين تابوا واتبعوا سبيل الله ومن صلح من الآباء والأزواج والأبناء معهم أن يقيهم السيئات فى مستقبل حياتهم .

وتختم الآيات بقوله تعالى : ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ آيات قرآنية عظيمة فى غاية الجمال أسلوبًا ومعنى(٢).

---

(١) سورة غافر الآيتان : ٧، ٨ .

(٢) من محاضرة للإمام عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق .

وثائق التأمين :

وإلى الآباء والأمهات الذين يُؤمِّنُونَ على حياتهم بوثائق تأمين لصالح أبنائهم بمبلغ من المال ، قَلَّ أو كَثُرَ ، معتقدين بذلك أنهم قد ضمنوا لهم المستقبل وأمَّنُوا لهم الحياة . . .

إلى هؤلاء نقول : إن نظام التأمين الحالى مُحَرَّمٌ ؛ لأنه لا يختلف عن الْـمَـيْسِرِ فى شىء ، حيث إن كل واحد يشترك فى هذا التأمين إنما يُخَاطِرُ بثروته التى يشارك فيها ولا يدرى هل ستعود عليه بنفع أم ستُنقل إلى جيوب الآخرين . والإسلام قد حَرَّمَ كل أنواع الميسر، وقرن تحريمها بالخمر فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١)

وبجانب ذلك فإن شركات التأمين تتاجر بهذه الأموال فيما قد لا يبيح الإسلام التجارة فيها . . .

كما أن التأمين على الحياة بصورته الحالية محرم كذلك ، وذلك لاشتماله على الربا المحرم شرعًا ، ولعدم الارتباط بين قيمة التأمين وحصول الضرر ، فضلاً عن عدم تحديد هذه القيمة بالقدر الذى يجبر الضرر إذا وقع فعلا .

والبديل الوحيد الذى يقرره الإسلام لأشكال التأمين التجارى المحرم هو التأمين التعاونى ، حيث إن عقد التأمين التعاونى يقوم على مبدأ التعاون الذى يُبنى على التبرع من أناس محسنين بدون الالتفات إلى مصلحة لهم ، وإنما الغاية مساعدة المحتاجين المصابين إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، على أن تُنَمى هذه الأموال وتُستثمر فيما يبيح الإسلام التجارة فيه . وعقد التأمين التعاونى الذى يُبنى على التبرع لا مجال فيه للضرر، ولا مجال فيه للربا أو الشبهات التى يحرم بسببها التأمين التجارى شرعًا .

ومن ناحية أخرى يقول فضيلة الشيخ الشعراوى فى إحدى محاضراته : « إن التأمين

---

(١) سورة المائدة ـ الآية ٩٠ .

على الحياة يعلم الفرد بلادَةَ الحس الإيمانى ، فعندما تحدث له حادثة لا يعتمد على الله ويقول يارب احفظْنى ، وإنما يعتمد على أموال التأمين القادمة . وإنَّ ما يحدث للفرد فى ماله أو فى أى شىء قد يكون مقصودَ الله منه أَن يطهره .

والإسلام عند ما يُطَبَّقُ ككلٍّ لا يحتاج إلى مسألة التأمين هذه إطلاقًا ، فالإسلام بناء لابد أن يكون موجودًا كله من أساسه بدون تلفيق أو حشر » .

ومن طريف ما يُرْوَى فى هذا المجال : دخل مَسلمة بن عبد الملك على الخليفة عمر ابن عبد العزيز وهو يجود بروحه ، فقال : « يا أمير المؤمنين إنك قد فَغَرْتَ أفواه ولدك من هذا المال ، فلو وصيت بهم إلىَّ ، وإلى نظرائى من قومك فكفوك مئونتهم » . فقال عمر ـ رحمه الله ـ لأصحابه من حوله : أَجْلِسُونى . وما إنْ أجلسوه حتى قال : « قد سمعتُ مقالتَك يا مَسْلَمة ، أما قولك : إنى قد أَفْغَرْتُ أفواه ولدى من هذا المال ، فوالله ما ظلمتهم حقًّا هو لهم ، ولم أكن أعطيهم شيئًا لغيرهم . وأمَّا ماقلت فى الوصية فإن واجبى فيهم : « الله الذى نزل الكتابَ وهو يتولى الصَّالحين » وإنما ولد عمر أحد رجلين : إمَّا رجلٌ صالح فسيغنيه الله ، وإمّا غير ذلك ، فلن أكون أولَ من أعانه بالمال على معصية الله » .

وتمضى سنوات وسنوات ، ويدخل مقاتلُ بن سليمان على المنصور فى يوم بيعته بالخلافة ، فيقول له المنصور : عِظْنِى يا مقاتل .

قال مقاتل : أَعِظُكَ بما رأيتُ أم سمعتُ ؟

قال : بما رأيتَ .

قال : يا أمير المؤمنين ، ماتَ عمر بن عبد العزيز وقد خلف أحَدَ عَشَر ولدًا ، وترك ثمانية عشر دينارًا ، كُفِّنَ منها بخمسة ، واشترى له قَبْرٌ بأربعة ، ووزع الباقى على ولده .

ومات هشام بن عبد الملك ، فكان نصيب إحدى زوجاته الأربع من النقد دون الضياع ثمانين ألفًا . والله يا أمير المؤمنين لقد رأيتُ فى يوم واحدٍ ولدًا من ولد عمر بن

عبد العزيز يحمل مائة فرس فى سبيل الله . وولدًا من ولد هشام بن عبد الملك يسأل الناس فى الطريق .

* * *

إذَنْ ضِد مَنْ أُؤَمِّنُ ؟

وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾(١).

وليس معنى هذا أن الإسلام لا يبيح لنا أن نَدَّخر لأولادنا أموالاً من أى نوع ، ولكنَّ شَرْطَ الإسلام الوحيد هو أن تكون مصادر هذه الأموال حلالاً صافيًا لا شُبْهَةَ فيها . . وعلينا أن نتذكر دائمًا قول الرسول ﷺ : « لا تزول قَدَمَا عبد حتى يُسْأَل عن أربع : عن عُمره فيم أفناه ، وعن عِلْمِه ماذا عمل به ، وعن شبابه فيم ضَيَّعَهُ ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه »(٢).

وقد كان عمر بن الخطاب يكرر كلما خلا إلى نفسه : « ماذا تقول لربك غدًا ؟ » . وكان عمر بن العزيز يتخذ لنفسة شعارًا يردده دائمًا ، وهو : « أخشى يومًا صبيحته القيامة » .

وقد حدد لنا كتاب الله الكريم وسائل الأمن والأمان والحماية والضمان لأنفسنا ولأولادنا ، وما علينا ـ نحن معشر الآباء والأمهات ـ إلاَّ أن نخشى الله ونتقيه ونقول قولا سديدًا ، نخشى الله فى كل شىء ، فى أنْفُسِنا ، وفى أولادنا ، وفى أموالنا . ونتقى الله حيثما كُنا ؛ لنعيش فى رحاب قوله تعالى :

---

(١) سورة النساء ـ الآية التاسعة

(٢) متفق عليه .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾(١).

ثالثا: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾

يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾(٢).

يحذر القرآن الكريم المؤمنين من فتنة الأزواج والأولاد والأموال ، ويدعوهم إلى تقوى الله والسمع والطاعة .

ثالثا : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾

سُئل ابن عباس رضى الله عنه عن هذه الآية فقال : هؤلاء رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعُوهُم ، فلما أتَوْا رسول الله رأوا الناس قد فُقِّهُوا فى الدين ، فَهَمُّوا أن يُعاقبوهم ، فأنزل الله :

﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(٣).

وليست العبرة بخصوصية السبب ، فالنص القرآنى أشملُ من الحادث الجُزئى ،

---

(١) سبق تخريجها ـ عن : توصيات هيئة كبار العلماء ومجمع الفقه الإسلامى بالسعودية ، وتوصيات مجمع البحوث الإسلامية بمؤتمره الثانى بالقاهرة ، وآراء لجنة بالأزهر الشريف . وتوصيات ندوة التشريع الإسلامى التى انعقدت بليبيا عام ١٩٧٢ ومحاضرة لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ـ وحديث لفضيلة الشيخ أحمد بن حمد الخليلى مفتى سلطنة عمان .

(٢) سورة التغابن ـ الآيات من ١٤ ـ ١٦

(٣) رواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح .

وأبعدُ مدًى ، وأطول أمدًا . فهذا التحذير من الأزواج والأولاد لأن من الأزواج والأولاد من يكون عدوًّا ؛ لأنهم قد يكونون مَشْغَلَةً ومَلْهَاةً عن ذكر الله ، كما أنهم قد يكونون دافعًا للتقصير فى تَبِعَات الإيمان اتقاءً للمتاعب التى تحيط بهم ، فلو قام المؤمن بواجبه فلقى ما يلقاه المجَاهد فى سبيل الله ، مِنْ تعرضه لخسارة الكثير ، والتضحية بالكثير ، وقد يتعرض هو وأهله للعَنَت ، وقد يتحمل العنت فى نفسه ولا يحتمله فى زوجه وولده ، فيبخل ويجبن ؛ ليوفر لهم الأمن والاستقرار ، والمتاع والمال ، فيكونوا عدوًّا له ، لأنهم صدوه عن الخير ، وعَوَّقُوه عن تحقيق غاية وجوده الإنسانى العليا ، ومن ثم اقتضت هذه الحال التحذير من الله لإثارة اليقظة فى قلوب الذين آمنوا ، والحذر من تسلل هذه المشاعر ، وضغط هذه المؤثرات .

﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾

وكرر القرآن الكريم التحذير من فتنة الأموال والأولاد ، والفتنة هنا قد تكون بمعنيين :

فقد تكون الفتنة بمعنى الاختبار ، فالله سبحانه وتعالى قد يفتننا بالأموال والأولاد اختبارًا لنا ، فالله سبحانه وتعالى يعلم أنَّ حِرْصَ الناس على الأموال وعلى الأولاد من أعمق مواطن الضعف فيهم ، ولقد وهبهم الله سبحانه وتعالى الأموال والأولاد ليبلوهم بها ، ويفتنهم فيها ، فهى من زينة الحياة الدنيا التى تكون موضع امتحان وابتلاء ، ليرى الله فيها صنيع العبد وتصرفه : أيشكر عليها ويؤدى حق النعمة فيها ، أم يشتغل بها حتى يغفل عن أداء حق الله فيها ؟ ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ فالفتنة لا تكون بالشدة والحرمان وحدهما ، إنما تكون كذلك بالرخاء والعطاء فى الأموال والأولاد ، وكل متع الحياة الدنيا وزينتها .

فإذا تَنَبَّه الإنسان المسلم إلى موضع الابتلاء والاختبار كان ذلك عونًا له على الحذر واليقظة والاحتياط والاستعلاء على فتنة الأموال والأولاد . فعلينا أن نتنبه لهذا ، ونحاذر، ونكون دائمًا وأبدًا يقظين ؛ لننجح فى الابتلاء ونخلص ونتجرد لله .

وقد تكون هذه الأموال والأولاد فتنة لنا ، تُوقعنا بفتنتها فى المخالفة والمعصية ، فلنحذر هذه الفتنة حتى لا تجرفنا وتبعدنا عن الله .

وقد روى الإمام أحمد بإسناده عن عبدالله بن بُرَيْدَةَ قال : سمعتُ أَبِى بُريدة يقول : « كان رسول الله ﷺ يخطب ، فجاء الحسنُ والحُسَيْن ـ رضى الله عنهما ـ يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال : صدق الله ورسوله ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة . نظرت إلى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعتُ حديثى ورفعتهما » . . فهذا رسول الله ﷺ ، وهذان ابنا ابنته ، وإنه لأَمْرٌ إذن خطِير ، وإن التحذير فيه لضرورة يقدرها مَنْ خَلَقَ قلوبَ الناسِ وأودعها هذه المشاعر ، حتى لا نتمادى أو نفرط .

لذلك كان النداء للذين آمنوا : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ مما يتجلى فيه لطف الله بعباده وعلمه بمدى طاقتهم فى تقواه وطاعته ، وقد قال رسول الله ﷺ « إذا أمرتُكُم بأمْرٍ فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوا »(١).

فالطاعة فى الأمر ليس لها حدود ، ومن ثم يقبل فيها ما يُستطاع ، أما النهى فلا تجزئة فيه ، فيطلب بكامله دون نقصان .

إن هذه الآيات البينات تحكى قصة رجال أسلموا بمكة ، ومنعهم أولادهم وأزواجهم من الهجرة إلى المدينة لحاقًا برسول الله ﷺ ، فكان التحذير من الله عز وجل : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ وكان التحذير أيضًا : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ .

ويحكى لنا القرآن الكريم أيضًا قصة رجل أسلم وهاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، ولكنه خَشِىَ على أولاده وأرحامه مِنْ عَنَتَ كفار قريش بمكة ، وأراد أن يحميهم، فضعفت نفسه ، وكانت له كبوة ، ومن هو ؟ إنه صحابىٌّ جليل مِمَّنْ شَهدَ بدرًا . . فكان التحذير من الله عز وجل :

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ﴾(٢).

---

(١) رواه الشيخان عن أبى هريرة .

(٢) من الآية الثالثة من سورة الممتحنة . وانظر : فى ظلال القرآن لسيد قطب

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ﴾

يقول الله تعالى : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١)

كان بعض المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم فى سبيل عقيدتهم لا تزال نفوسهم مشدودة إلى بعضٍ مِمَّنْ خَلَّفُوا هنالك ، من ذريةٍ وأزواج ، وذوى قربى .

وكان الله يريد استصفاء هذه النفوس وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه ، فنزلت هذه الآية فى حادثة حاطب بن أبى بَلْتَعَة ، ولكن مدى النص القرآنى دائمًا أبعد من الحوادث المباشرة ، العبرة ـ كما يُقال ـ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . حاطب بن أبى بلتعة من المهاجرين ، ومن أهل بدر أيضًا ، وكان له بمكة أولاد ومال ، فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة ـ لما نقض أهلها صلح الحديبية ـ أمرَ المسلمين بالتجهيز لغزوهم ، وقال : « اللهم عَمِّ عليهم خبرنا » .

وأخبر رسول الله ﷺ جماعة من أصحابه بوجهته ، وكان منهم حاطب ، فعمد حاطبٌ فكتب كتابًا وبعثه مع امرأة مشركة من مُزَيْنَة إلى أهل مكة يعلمهم بعزم رسول الله ﷺ على غزوهم ؛ ليتخذ بذلك عندهم يدًا . فَأَطْلَعَ الله عز وجل رسوله على ذلك ، فبعث فى أثَرِ المرأة علىَّ بن أبى طالب ، وأبا مَرْثَدٍ ، والزبير بن العوام ، فأدركوها تسير على بعير فأمروها بإخراج الكتاب ، فأنكرت ، فقالوا لها : « لتخرجن الكتاب أو لَنُجَرِّدَنَّكِ » فأخرجته ، وانطلقوا به إلى رسول الله ﷺ . فقال الرسول لحاطب : ما حَمَلَكَ على ما صنعت ؟ . قال حاطبٌ : والله مابى إلاَّ أن أكون مؤمنًا بالله ورسوله ـ ﷺ ـ أردتُ أن تكون لى عند القوم يدٌ يدفع الله بها عن أهلى ومالى بمكة ، وليس لأحد من أصحابك إلاَّ له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله . .

فقال الرسول : « صَدَقَ ، لا تقولوا إلاَّ خيرا » .

فقال عمر : إنه قد خانَ الله ورسوله والمؤمنين فدعنى لأضرب عُنقه .

---

(١) سورة الممتحنة : الآية ٣ .

فقال الرسول : « أليس من أهل بدر ؟ لعل الله اطَّلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وَجَبَتْ لكم الجنة . فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

وإنْ كان هذا هو سبب النزول ، فإنَّ مضمون النص القرآنى أبعد مَدًى ، وأدل على أنه كان يعالج حالة نفسية أوسع من حادث بلتعة . يعالج مشكلة حِرْصِ وحنو الآباءِ على الأبناء والذرية والأواصِر القريبة .

إن هذا الحادث يكشف عن منحنيات النفس البشرية العجيبة وتعرضها للحظات الضعف البشرى مهما بلغت من كمالها وقوتها ، وإنه لا عاصَم إلا الله من هذه اللحظات ، فهو الذى يُعين عليها عند ما يلتزم الإنسان بأوامر الله ونواهيه .

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ﴾ التى تهفون إليها وتتعلق قلوبكم بها وتضطركم إلى مخالفة منهج الله فى أى أمر من أمور الحياة الدنيا ، ذلك أنه ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . . فالله مطلع على العمل الظاهر .

كما يحذر القرآن الكريم الذين آمنوا ألاَّ تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله : قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(١).

فالأموال والأولاد مَلْهَاة ومَشْغَلة إذا لم يستيقظ القلب ويدرك غاية وجوده فى هذه الحياة الدنيا ، وهى عبادة الله . . قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(٢).

إن هذا التوجيه يبرز قيمة العقيدة ، ويجعلها هى الراية الوحيدة التى يقف تحتها المسلمون ؛ لتكون قيم الحياة وارتباطها كلها على أساس هذه العقيدة ، وليكون الدين

---

(١) سورة المنافقون ـ الآية التاسعة .

(٢) سورة الذرايات ـ الآية ٥٦ .

الإسلامى الحنيف هو الذى يقود حياة الناس ويهيمن على نشاطها فى كل ميدان وفى كل تصرف .

رابطة الإيمان هى أساس علاقة الوالد مع ولده :

يوضح لنا القرآن الكريم فى قوله تعالى :﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ * قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[1]

أن علاقة الوالد مع ولده لا تقوم على أساس رابطة الدم والنسب التى تجمعهما ، وإنما الأساس الوحيد التى تقوم عليه هذه العلاقة ـ وأى علاقة أخرى ـ هى رابطة الإيمان ، وصلة الدين ؛ فإن الصلة التى يتجمع عليها الناس فى هذا الدين ليست صلة الدم والنسب ، وليست صلة الأرض والوطن ، وليست صلة القوم والعشيرة ، وليست صلة اللون واللغة ، وليست صلة الجنس والعنصر ، وليست صلة الحرفة والطبقة . . . وليست . . وليست . . لأن كل هذه الصلات قد توجد جميعها ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد . . كما قال تعالى لعبده نوح عليه السلام وهو يقول : ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ فقال تعالى : ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ ﴾ ولماذا ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾ !

إنّ صلة الإيمان قد انقطعت بين نوح وابنه ، فنوح يحسب أن ابنه من أهله ، ولكن الله سبحانه وتعالى يوضح له أنه ليس من أهله ، وإنْ كان هو ابنه من صلبه .

وهكذا نجد أن نظرة هذا الدين القويم إلى الصلات والروابط تجعل الأساس الوحيد لها هو صلة الدين ، رابطة الإيمان والعمل الصالح : ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾ ، فالصلة الوحيدة التى يعتبرها الإسلام هى صلة الدين ، والرابطة التى يقرها الإسلام هى رابطة الإيمان .

وهكذا يضرب لنا القرآن الكريم المَثَل فيما يكون بين الوالد المؤمن والولد المشرك فى قصة نوح عليه السلام وابنه . كما ضرب لنا القرآن الكريم المثَل فيما يكون بين الولد

---

(١) سورة هود ـ الآيتان : ٤٥ ، ٤٦ .

المؤمن والوالد المشرك فى قصة إبراهيم عليه السلام وأبيه آزر.

وبهذه الأمثلة وغيرها التى ضربها الله للأمة المسلمة فى القرآن الكريم تتضح معالم الطريق عن حقيقة العلاقة والرابطة التى يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم ، ولا يقوم على سواها ، إنها الصلة فى الله ، وإنها رابطة الإيمان .

وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١).

رابعًا : الرضا بقضاء الله عند فَقْد الولد :

جزاء الرضا عند الله :

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، قال : أخذ رسول الله ﷺ بيد عبد الرحمٰن بن عوف رضى الله عنه ، فانطلق به إلى ابنه إبراهيم ، فوجده يجود بنفسه ، فأخذه النبى ﷺ فوضعه فى حجره ، فبكى ، فقال له عبد الرحمٰن : أتبكى يا رسول الله ؟ أو لم تكن نَهَيْتَ عن البكاء ؟ قال : لا ، إنى لم أَنْهَ عن البكاء ، إنما نهيتُ عن صَوْتَيْنِ أحْمَقَيْن فاجِرَيْنِ : صوت عند نغمة لهو ولعب ومزامير شيطان . وصوت عند مصيبة : خمش وجوه ، وشق جيوب ، ورنة شيطان ، وهذا (يعنى البكاء فقط) رحمة ، ومن لا يرحم لا يُرحم » (٢).

---

(١) سورة المجادلة ـ الآية ٢٢ . وانظر : فى ظلال القرآن لسيد قطب (بتصرف) .

(٢) رواه الترمذى ـ تحفة الأحوذى ـ ج ٤ .

وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ . « مَنْ قَدَّمَ ثلاثةً لم يبلغوا الحنث كانوا له حِصنًا حصينًا »[1].

الحنث : سن البلوغ وروى الطبرانى بإسناد جيد قول رسول الله ﷺ : « ما مِنْ مُسْلِمَيْنِ يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلاَّ جيء بهم يوم القيامة حتى يُوقَفُوا على باب الجنة ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة . فيقولون : حَتَّى يدخل آباؤنا . فيقال لهم : ادخلوا أنتم وأباؤكم» .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلاَّ تَحِلَّة القَسَم »[2].

وروى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال للنساء مرة : « ما منكن امرأة يموت لها ثلاثة من الولد إلاَّ كانوا لها حجابًا من النار» فقالت امرأة : واثنان يا رسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ . « واثنان » .

وعن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ كان له فرطان من أمتى أدخله الله بهما الجنة » قالت عائشة : فمن كان له فَرَطٌ من أُمتك ؟ قال : ومن كان له فرط يا موثقة » قالت : فمن لم يكن له فرط من أُمتك ؟ قال : « فأنا فَرَطُ أمتى ، لن يصابوا بمثلى »[3].

الفرط : المتقدم ، ومنه الدعاء للطفل الميت ، « اللهم اجعله لنا فَرَطًا » أى : أجرًا يتقدمنا . يقال افترط فلان ابنه صغيرًا : إذا مات قبله[4].

وعن قرة المزنى رضى الله عنه ، قال : كان نبى الله ﷺ إذا جلس يجلس إليه نفر من أصحابه ، وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره فَيُقْعِدُه بين يديه ، فهلك ،

---

(١) رواه الترمذى ـ تحفة الأحوذى ـ ج ٤ .
(٢) رواه الترمذى ـ تحفة الأحوذى ـ ج ٤ .
(٣) رواه الترمذى ـ تحفة الأحوذى ـ ج ٤ .
(٤) النهاية فى غريب الحديث ـ ج ٤ .

فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة لذكر ابنه ، فحزن عليه ، فافتقده النبى ﷺ ، فقال : مالى لا أَرَى فلانًا ؟ فقالوا يا رسول الله ، ابنه الذى رأيته هَلَكَ . فلقيه النبى ﷺ فَعَزَّاهُ عليه ، ثم قال الرسول له : أيهما كان أحب إليك : أَنْ تُمَتَّعَ به عمرك أو لا تأتى غدًا إلى باب من أبواب الجنة إلاَّ وجَدْتَهُ قد سبقكَ إليه يفتحه لك ؟ قال: يا نبى الله ، بل يسبقنى إلى باب الجنه فيفتحها إلىَّ لهو أحب إلىَّ . قال الرسول : فذاكَ لَكَ ، فقال رجل: يا رسول الله ، جعلنى الله فِداءَكَ ، أله خاصة أو لكلنا ، قال الرسول:بل لِكلكم [1].

فما أجدر الآباء والأمهات أن يتذرعوا بالإيمان ، وأن يتسلحوا باليقين حتى إذا أصابتهم مصيبة لم يجزعوا ، وإذا مات لهم ولد لم يتبرموا ، وإنما كان قولهم : إنالله ، وإنا إليه راجعون ، فإنَّ لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شىء عنده بأجل مسمى ، فليصبروا ، وليحتسبوا ، حتى يحظوا بالثواب والأجر من عند من له الحُكم والأمر ، فاللهم هَوِّنْ علينا مصائب الدنيا ، ورَضِّنَا بقضائك وقَدَرِكَ ، وتولنا فى الدنيا والآخرة ، يا خير المتولين ، يا رب العالمين .

ومن النماذج الرائعة للصبر والرضا عند فقد الولد ما وقع من أم سليم زوجة أبى طلحة الأنصارى رضى الله عنهما ، والتى كان مهرها منه هو إسلامه ، والتى ذكرنا حكايتها من قبل مع زوجها أبى طلحة عندما مات ولدها منه .

تعزية رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل فى موت ابنه :

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه ، أنه مات له ابن ، فكتب إليه رسول الله ﷺ يعزيه ، فقال : « بسم الله الرحمٰن الرحيم ، من محمد رسول الله ـ ﷺ ـ إلى معاذ بن جبل ، سلامٌ عليك فإنى أحمد الله إليك الذى لا إلٰه إلا هو ، أما بعد ، فَأَعْظَمَ الله لك الأَجْرَ ، وألهمك الصبر ، ورزقنا وإياك الشكر ، فإنَّ أنفسنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا من مواهب الله عز وجل الهنية ، وعواريه المستودعة ، نُمَتَّعُ بها إلى أجل محدود ، ويقبضها بوقت معلوم ، ثم افترض علينا الشكر إذا أَعْطَى ، والصبر إذا ابتَلَى ، وكان ابنك من

---

(١) أخرجه النسائى وابن ماجه فى صحيحه ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

مواهب الله الهنية ، وعواريه المستودعة ، متعكَ به فى غبطة وسرور ، وقبضه بأجر كثير، الصلاة والرحمة والهدى ، إن احتسبت فاصبر ، ولا يحبطك جزعك أجرك فتندم ، واعلم أن الجزع لا يرد شيئًا ، ولا يدفع حزنًا ، وما هو نازل فكأن قد ، والسلام »[١] .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « إذا ماتَ ولَدُ العبد، قال الله لملائكته : قبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم . فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم . فيقول : ماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع . فيقول : ابنوا لعبدى بيتًا فى الجنة ، وسَمُّوه بيت الحمد »[٢].

ومعنى « استرجع » أى قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

وعن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : أرسلت ابنة النبى ﷺ إليه أنَّ ابنًا لها فى الموت فأتنا ، فأرسل يقرىء السلام ويقول : « إن لله ما أخذ ، ولله ما أعطى ، وكل شىء عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب »[٣].

وعن أم سلمة رضى الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول : « إنا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللهم أْجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرًا منها ، إلاَّ أجَرَهُ الله فى مصيبته وأخلفه خيرًا منها . قالت : ولما توفى أبو سلمة قلتُ كما أمرنى رسول الله ﷺ ، فأخلفَ الله لى خيرًا منه ، رسول الله ﷺ »[٤].

وهذا مصداقُ قوله تعالى فى وصف المؤمنين ؛

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾[٥].

---

(١) أخرجه الحاكم وابن مردويه .

(٢) أخرجه الترمذى وابن حِبَّان .

(٣) أخرجه البخارى ومسلم .

(٤) أخرجه مسلم .

(٥) سورة البقرة ـ الآيتان ١٥٦ و ١٥٧ .

وأرسل الإمام الشافعى رضى الله عنه إلى بعض أصحابه يعزيه فى ابن له بقوله :

إنى مُعَزِّيك لا أنى على ثقـة من الخُلودِ ولكـن سُنَّـة الدِّينِ
فمـا المُعَزَّى ببـاقٍ بعـد مَيِّتِهِ ولا المُعَزِّى ولو عَاشَا إلـى حين

وكتب الحسن بن وهب يعزى ابن إسحاق عن ولده : « الأمير أعلمُ بالدِّين من أن يُذَكَّرَ به ، وبالدنيا من أن يُدَلَّ على ما خُلِقَتْ له . . كان الله لكَ فى الدنيا ، ولفقيدك فى الآخرة والسلام » .

وكتب الجاحظُ إلى بعض أصحابه يعزيه فى ابن له بقوله : « أما بعد ، فإنَّ فى الماضى قبلك الباقى لك بَعْدَكَ ، المأجور منك ، وإنما يُوَفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب » .